حوادث دمشق الاقتصادية اليومية في القرن الثامن عشر

للحلاق البديري

الأستاذ الدكتور مصطفى العبد الله الكفري

Contents

موضوعات حوادث دمشق اليومية: 2

البديري يدون أحداث دمشق عاماً بعد عام لمدة واحد وعشرين عاماً: ... 4

يوميات حوادث دمشق اليومية للبديري: 4

سنة 1158 زادت الأسعار وعظمت أمور السفهة والأشرار: 7

سنة 1164 فرض والي الشام أسعد باشا على الزعماء والأكابر والتجار بأن يأتوا له من مدينة حماة بقمح: 8

كتاب "حوادث دمشق اليومية" حافل بالأخبار: 9

البديري دون في (حوادث دمشق الشام اليومية) ما جرى في دمشق خلال إحدى وعشرين سنة من القرن الثامن عشر: 9

حوادث دمشق الاقتصادية اليومية في القرن الثامن عشر

للحلاق البديري

الأستاذ الدكتور مصطفى العبد الله الكفري

اشتملت (حوادث دمشق الشام اليومية) التي دونها شهاب الدين أحمد بن بدير البديري الشهير بالحلاق، خلال الفترة 1154 - 1176 هجري على غرائب وعجائب وأهوال، ولبساطة مؤلفها كتبها بلسان عامي، ثم أطنب بزيادات الحوادث وأدعية مسجعة يملُّ سامعها ويسأم قارؤها، فقام المحقق للمخطوط بحذف القشور من هذه الحوادث ووضع اللباب، وهذبها على حسب الاستطاعة بالصواب. 1

موضوعات حوادث دمشق اليومية:

اكتسبت الحوادث أهميتها من كونها صورة عفوية صادقة عن العصر الذي عاش فيه البديري، من النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية والإدارية والأمنية. كانت حوادث دمشق اليومية التي دونها الحلاق تدور حول الموضوعات الآتية:

- أخبار باشوات دمشق، أصحاب المناصب، والولاة، وقد استغرقت هذه الأخبار معظم صفحات اليوميات.

[1] - أحمد البديري، حوادث دمشق اليومية، حققها ونشرها عزت عبد الكريم (مطبوعات الجمعية المصرية للدراسات التاريخية.

- أخبار الفتن التي كانت يقوم بها العسكر العثماني في بلاد الشام وانعكاساتها على حياة الشعب الأمنية والمعاشية.
- أخبار مواكب الحج واهتمامات الناس بها وحفلات وداع الحجيج واستقباله وأخبار المناسبات الدينية.
- أخبار الحالة الاقتصادية والمعاشية في البلد وأسعار المواد التموينية في حال نقصها وارتفاع أسعارها وما يعانيه الشعب من إرهاق وضيق ينعكس على حالته الاجتماعية.
- أخبار بعض رؤساء الطوائف، ونقباء الحِرَف ومعلمي المهن الذين كان لهم تأثير في حياة دمشق الاجتماعية والاقتصادية.
- أخبار بعض المتصوفين وأصحاب الكرامات، ومايرافقها من قصص الغيبيات، التي كانت موضع اهتمام معظم أفراد الشعب في حينها.

تضمنت اليوميات منظومات المواليا، التي شغلت ما يقارب 11-15 صفحة. وكلها تصوير لأخلاق بعض فئات الشعب، ولاسيما المنافقين وتأثيرهم في أخلاق المجتمع.

كما حوت اليوميات التعليقات والحواشي التي تناثرت على هوامش الصفحات وأطرافها، معظمها يتضمن وجهة نظر البديري وتعليقه على بعض الحوادث والقصص. ومن الطرائف أن البديري الحلاق لم يذكر في هذه

اليوميات شيئاً عن أخباره أو أخبار أسرته ولا سنة ولادته ومسار حياته في صباه أو شبابه ولا أخبار البيت والبيئة التي عاش فيها. 2

البديري يدون أحداث دمشق عاماً بعد عام لمدة واحد وعشرين عاماً:

ومن طبيعة (مهنة الحلاقة) ان الحلاق البديري كان يلتقي بالكثير من الناس ويسمع أخبار المدينة والحكايات. بدأ بتدوين أحداث دمشق عاماً بعد عام واستمر على هذه الحال مدة واحد وعشرين عاماً. 3

فكانت تختزنها ذاكرته ويسجلها قلمه إضافة إلى مرويات زبائنه الكثيرين الذين كانوا ينتمون إلى مختلف فئات الشعب، وكانوا يروون له همومهم المعاشية والأمنية اليومية، في عصر كانت تسوده فتن العسكر العثمانيين وتمردهم واستبدادهم. وكان يقف على ما يجري في أنحاء دمشق من حوادث وأفراح ومآس ومواسم وأعياد.

يوميات حوادث دمشق اليومية للبديري:

قال البديري ما معناه: وفي (سنة 1155) اشتد الغلاء في سائر الأشياء سيما المأكولات، مع وجود الأغلال وغيرها، فمن عدم تفتيش الحكام صار

---

[2] - زهير حميدان، دمشق في أوسط القرن الثامن عشر كما يؤرخ لها البديري الحلاق، awu-dam.org/trath/44/turath44-011.htm

http://www.shatharat.net/vb/showthread.php?t=14021

[3] - ويكيبيديا، الموسوعة الحرة، البديري الحلاق الموسوعة العربية، المصدر السابق. https://www.wikiwand.com/ar/%D8%A7%D9%84%D8%A8%D8%AF%D9%8A%D8%B1%D9%8A_%D8%A7%D9%84%D8%AD%D9%84%D8%A7%D9%82

البياعين يبيعون بما أرادوا من أثمان للمأكولات (غير أن الغنم كان قليلاً جداً فصار الجزارون يذبحون الجاموس والجمل والمعز، فصار يباع رطل اللحم الشامي بثلاثين مصرية، ورطل إلية الغنم بقرش وربع، والبيض كل ثنتين بمصرية، والسمن رطل وأوقتين بقرش، والثوم رطله بثلاثين مصرية، ورطل الخبز بأربع مصاري وبخمسة مصاري وبأكثر. وقد كان بثلاث مصاري ونصف. فبقدوم شهر رمضان المبارك غلت الأسعار حتى الخضر، فقد كان قبل رمضان الكوسا كل مائة بمصرية، فلما هلّ رمضان صار خمسة وأربعة بمصرية، والباذنجان كل رطلين بمصرية، فصار كل رطل بمصريتين، واللحم عدم، وكل ذلك من عدم تفتيش الحكام). 4

وفي اليوم الثالث والعشرين من شوال سنة 1156 من هذه السنة، قدم سلخور من جهة السلطان، وقام بتحصيل مال سليمان باشا، وقدره اثنا عشر ألف كيس، ودخل الشام مثل شعلة النيران، وأخرج حرم سليمان باشا من ديارهم إخراجاً شنيعاً، وصاروا يفتشونهم كذا، واحدة، مع التفتيش في جيابهم وأعبابهم، وختم على جميع مخادع الدار، وأمر بالقبض على ابن عم المرحوم سليمان باشا، وهو السيد محمد، وعلى جماعة أخرى معه، وأمر بالترسيم الشديد عليهم، وسأل عن محمد آغا الديري، وكيل خرج سليمان باشا، فأخبروه أنه ذهب مع أسعد باشا إلى الحج، فأمر بجلبه، فجاؤوا به، وأمر بالترسيم عليه.

قال المؤرخ البديري: (ثم أحضر السلخور القاضي والأعيان، واستجلب حرم سليمان الباشا، وأحضر الجلاد وآلة العذاب، وشدّد على الحريم بالطلب،

4 - البديري، المصدر السابق.

وأن يعلموه عن المال أين مخبأ، فلما رأوا التشديد خافوا من العذاب وأقروا له عن بعض مخابئ تحت الأرض، فأرسل خلف المعمارية الذين عمروا السرايا، وكانوا نصارى، وكان المعلم نصرانياً يقال له ابن سياج، فأمر القبجي بتعذيبهم، وقطع رؤوسهم وأيديهم، فلما تحققوا عذابهم قالوا: نحن ندلك على كل ما عمل ثم أنهم حفروا له تحت الدرج، فبان عن سرداب، فرفعوا عنه التراب، ونزلوا في درج، فظهر مكان واسع وفيه صندوق مقفول وعليه غالات وقفول، فأخرجوه وفتحوه، فرأوه ملآن من الدراهم والريالات. ثم أخرجهم النصراني إلى مخدع، فحفر في دوائره، فإذا فيه سبع براني مملوءة من الذهب المحبوب السلطاني، فلما رأى الحاضرون ذلك الحال زاغت منهم الأبصار، ثم عدوه وضبطوه، فوجدوه ثمان مئة كيس وخمسين كيساً. فلما بلغ الناس ما خرج عنده من هذا المال، وكان في أيام شدة الغلاء، مع سوء الحال، لهجوا بالذم والنكال، وقالوا قد جوّع النساء والرجال والبهائم والأطفال حتى جمع هذا المال من أصحاب العيال، ولم يراقب الله ذا الجلال). 5

وفي اليوم الرابع عشر من شهر رمضان سنة 1157 بهذه السنة جاء فتحي أفندي الدفتردار من اصطنبول ودخل الشام بفرح وسرور، ولم ينله أدنى ضيم، وسبب ذلك ما بذل في الاصطنبول من المال الذي تميل به قلوب الرجال. وكان محسوباً على القظلار وجماعة من رؤساء الدولة كبار. وقيل إنه دخل اصطنبول سراً وفرق المال سراً وجهراً، وكان قد طلبه السلطان فزيّوا رجلاً بزيه، وأدخلوه على الملك، فقرعه بالكلام وبما وقع منه، وما أرسلت أهل الشام من الشكايات عليه، فكان كلما قال له حضرة الملك محمود خان كلاماً يشير له برأسه أن نعم، وكان قد أمره بذلك من أدخله، فحالاً أمر بقتله فقتل، وهو يظن أنه فتحي أفندي الدفتردار، ثم أمروا فتحي أن يلحق بالشام ليلاً. وفي آخر ذي الحجة بطلت الفلوس الذي كذا كانت ضرب الشام.

---

[5] - أحداث سنة 1155، كتاب "حوادث دمشق اليومية"، شهاب الدين أحمد بن بدير البديري الشهير بالحلاق.

سنة 1158 زادت الأسعار وعظمت أمور السفهة والأشرار:

وفي سنة 1158 زاد غلو الأسعار وقلت الأمطار وعظمت أمور السفهة والأشرار، حتى صار رطل الجبن بنصف قرش والبيضة بمصرية وأوقية السيرج بنصف الثلث، ومد الشعير بنصف قرش، ومد الحمّص بنصف قرش، ومد العدس بنصف قرش، وغرارة القمح بخمسة وأربعين قرشا، بعدما كانت بخمسة وعشرين غرشاً، وأوقية الطحينة بأربعة مصاري، والدبس كل ثلاثة أرطال بقرش، ورطل العسل بقرش وربع، وكل شيء نهض ثمنه فوق العادة، حتى صار مدّ الملح بنصف قرش.

وفي نهار الأحد بعد العصر خامس عشر جمادى الثانية من سنة 1159 ضربت مدافع، (فسألت الناس عن الخبر، فقيل: إن سعد الدين باشا أخا أسعد باشا جاءته رتبة وزارة، وجاءه طوخ. فهرعت أكابر الشام لأجل تهنئة أخيه أسعد باشا. وكان أسبقهم لتهنئة الباشا فتحي أفندي دفتر دار الشام، فلما رآه الباشا قام ودخل لدهليز الخزنة، فتبعه وجلس عنده، فأخرج أسعد باشا صورة عرض وأراه إياه، فأخذه فتحي أفندي وقرأه، وإذا فيه الأمر بقتله. وقال له حضرة الباشا ما تقول في هذا. فقال سمعاً وطاعة. لكن أنا في جيرتك فخذ من المال ما أردت وأطلقني، فقال له الباشا: ويلك يا خائن، أنا لم أنس ما فعلت في نساء عمي. ثم أمر برفع شاشه وقطع رأسه، فوضع في رقبته حبل، وسحب إلى خارج السرايا وقطع رأسه، وأرسل للدولة. ثم ضبط الوزير تركته وأموال أتباعه جميعاً للدولة العلية، فبلغت شيئاً كثيراً، وتفرق الباقون أيدي سبا، كأن لم يكونوا وانقضت دولة كأنها طيف خيال). [6]

وفي نهار الاثنين خامس محرم سنة 1160 الموافق لأول كانون الثاني زادت المياه بسبب سيل عظيم، ودخوله للشام كان نصف الليل، فحصل طوفان لم يسمع له نظير من قديم الزمان، هجم الماء من نصف الليل إلى الشام، وأغرق جميع ما كان في طريقه من الدكاكين، وأتلف أموالاً كثيرة لا تعد ولا تحصى، حتى صار المرجة كالبحر، ومع ذلك الماء يخطف الطير، وله خرير

[6] - أحداث سنة 1159، كتاب "حوادث دمشق اليومية"، شهاب الدين أحمد بن بدير البديري الشهير بالحلاق.

ودويّ وهدير. وقد غطت هذه الزيادة حجر تاريخ القلعة، ومرت في الأسواق والدور وأخرجت شيئاً غير محصور، وقد صارت تحت القلعة وفي المناخ بالارتفاع طول قامة الإنسان.

قال المؤرخ البديري: (وقد دخلت إلى قهوة المناخلية بعد انصراف الماء فوجدت الماء في أعلى مساطبها أعلى من ذراع، وقد شاب من هولها الكبير والصغير. وقد غرق بها أناس غير محصورين، مع ما أتلف من البهائم والأموال وقد أضرت بجميع ما مرت عليه وانهدمت أماكن كثيرة لا تحصى وتركتها بلاقع. نسأله تعالى اللطف في المقدور آمين). 7

سنة 1164 فرض والي الشام أسعد باشا على الزعماء والأكابر والتجار بأن يأتوا له من مدينة حماة بقمح:

وفي سنة 1164 فرض والي الشام أسعد باشا على الزعماء والأكابر والتجار بأن يأتوا له من مدينة حماة بقمح، ويكون أجرته منهم، فذهب بعضهم وأتى بقمح كثير، فبيعت الغرارة بإحدى وثلاثين غرشاً، ولم نستفد غير وجوده، وأما الغلاء فإنه باق بجميع الأصناف كما قدّمنا تسعيره.

وفي سنة 1166 شرع حضرة أسعد باشا في عمارة القيسارية التي في البزورية التي عزَّ نظيرها في الدنيا، وذلك بعد ما هدم قيساريتين ودور ودكاكين وجعلها قيسارية واحدة بهذه الصفة التي لا نظير لها. وفي سنة 1173 بوشر بعمارة جامع الأموي بعد الزلزال، فدخلته المعمارية والنجارون والدهانون والحجّارة، وبذلوا الهمة بتعمير القبة والجهة الشرقية

7 - أحداث سنة 1160، كتاب "حوادث دمشق اليومية"، شهاب الدين أحمد بن بدير البديري الشهير بالحلاق.

وما سقط من المآذن وبتحسين جميعه، ولا يُفتح إلا في وقت الصلاة فقط. والعمارة أيضاً مشتغلة في القلعة وترميمها، وقد تمت عمارة القلعة في شهر رجب سنة تاريخه، وتم تعمير الجامع الأموي والجهة الشمالية والقبة وترميم المنائر وتحسينه في شهر رمضان من هذه السنة.

وفي تلك الأيام ورد الخبر إلى دمشق الشام بأن سعد الدين باشا بن العظم مات في ديار بكر، وجاء الأمر بضبط ماله، فضبطت الدولة على ماله واستولت على نواله، فقد نقل الثقات أنه خرج عنده مال عظيم.

كتاب "حوادث دمشق اليومية" حافل بالأخبار:

(يحفل كتاب "حوادث دمشق اليومية" بالأخبار التي جمعها أحمد البديري الحلاق في الفترة التي كان يسجل فيها حوادثه وقد استغرقت واحداً وعشرين عاماً ..... وكاد المؤلف أن يحصر اهتمامه بتدوين ما يجري في دمشق وحدها، من تولي الباشوات وكبار أصحاب المناصب، وعزلهم ومصادرة أموالهم كالمتسلم، أي مندوب الباشا لإدارة الولاية أثناء غيابه، والدفتدار أي المشرف على الحسابات المالية والقاضي والمفتي وآغوات العسكر، وهذه رتبة عسكرية. أضف إلى ذلك أنباء الحج، وطلوع موكب الحج من دمشق وعودته إليها، وما جرى له في الطريق، وفتن الجنود، ونهوض الأسعار واضطراب الأمن وفساد الأخلاق وانتشار الأمراض وغزو الجراد.. وحدوث ظواهر طبيعية من ريح شديد وخسوف وكسوف.. وفيضان وزلازل). [8]

البديري دون في (حوادث دمشق الشام اليومية) ما جرى في دمشق خلال إحدى وعشرين سنة من القرن الثامن عشر:

كتاب (حوادث دمشق الشام اليومية) دون فيه البديري الحلاق ما جرى دمشق خلال إحدى وعشرين سنة من ذلك القرن (1741-1762 ميلادية). لم يقصد البديري أن يدون تاريخاً لدمشق الشام فمثل هذا العمل الكبير كان فوق ما تحتمله ثقافة الرجل، بل كان فوق إدراك أكثر علماء ذلك الزمان، لكنه شهد أحداثاً انفعل بها، فانكب على أوراقه في محل للحلاقة صغير يسجل ما شهد

[8] - https://www.goodreads.com/book/show/6715509

وما سمع يوماً بعد آخر، دفعته إلى ذلك مجرد الرغبة في التسجيل خشية النسيان، أو هواية الكتابة والتعبير عن مشاعره والتنفيس عن كامن عواطفه وتسجيل رأيه في الناس وفي الحوادث، أو الرغبة في إفادة من يأتي بعده.

كل هذه المشاهدات والمسموعات حركت إحساسات البديري الحلاق، فراح يسجلها بعد نضجه، بعفوية المدون الشعبي، على مدى عشرين سنة في صفحات عرفت بعدما ظهرت باسم «حوادث دمشق اليومية مذكّرات البديري الحلاق. في مثل هذا المناخ الفكري المتخلف والحالة الاجتماعية المتردية.. تصاب المحاكمة المنطقية بالعطالة ويغدو الذهن جاهزاً لتقبل الشائعات وتصديقها... دون إعمال الفكر بالنظر فيها وغربلتها.

الأستاذ الدكتور مصطفى العبد الله الكفري

كلية الاقتصاد – جامعة دمشق

دمشق ص ب 12341 سورية